الشخصيات التى أقدرها...
والكتب التى أتوفر عليها

للدكتور احمد ضيف

أستاذ الادب العربى بمدرسة المعلمين العليا

(الدكتور أحمد ضيف)

الأستاذ الدكتور احمد ضيف عالم محقق وباحثة يتميز أسلوبه فى البحث بأنه جماع التفكير المتزن ، والتقدير الهادىء العميق ... كما يتميز أسلوبه فى الكتابة بأنه من ذلك الطراز الذى يفصح عن الاناقة والجمال والشباب والقوة . . .

ولقد استطاع الاستاذ الدكتور ضيف أن يكون له من هذين الاسلوبين شخصية يقدرها العلماء لأنها شخصية العالم الجهبذ ، ويقدرها المنشئون لأنها شخصية الكاتب الفخم العبارة الرائع الأداء . . . على أن الاستاذ الجليل لم يكن من أولئك الذين تسبق شهرتهم أقدارهم ، بما يفشو حواليهم من طنين ، وإنما هو من تلك الزمرة القليلة التى تعيش عيش العلماء حقاً . . هدوء وعدم اكتراث لظواهر الذيوع الزائف . .

ولقد رأت « المعرفة » أن تخرج بالاستاذ الجليل عن عزلته البعيدة عن مواطن الصحف ، وهى عزلة نرجو أن يكون نتاجها سفراً كذلك السفر الممتع الذى وضعه عن « بلاغة العرب فى الاندلس » . سألته أن يكتب عن « الشخصيات التى يقدرها والكتب التى يعنى بدراستها فكان أن تفضل بذلك المقال القيم الذى جمع إلى طرافة البحث جمال التصوير ودقة التفكير

المحرر

قال الدكتور : أحب أن أقرأ كل شيء لأكون من أهل الثقافة ، ولأحيط بتاريخ

الفكر الانسانى ، فأقرأ التاريخ العام والادب ، والاجتماع والفلسفة ، وتاريخ العلوم والفنون ، وأحب أن أقرأ كل شيء به مسحة من الجمال ، أو ما نسميه بلغة اليوم : « الفن » وأنت جد عارف أن الفن لا يطلق على التصوير والنحت والموسيقى والشعر لا غير ، بل يطلق على كل شيء من : قول أو فعل يتمشى فيه الجمال.

وأنا من الذين لا يتقيدون بكتاب واحد ، ولا بكاتب واحد ، ولا بموضوع واحد ، ولكنى لا أحب أن أقرأ ما يثير فى النفس ضعفا ، أو حقداً ، أو ذعراً ، أو خوفا ، أو قسوة ، أو ظلما ، لأنى ضعيف الفؤاد ، مبتئس النفس ، أحب الهدوء ، والسكينة ، والشفقة والرحمة ، ثم أحب أن أجد فيما أقرأ صور الحياة والانسان ... لذلك أميل إلى قراءة التاريخ .

وأحب أن أرى فيما أقرأ صور النفوس الانسانية ، وما بها من أخلاق ، وعادات ، وضعف، وقوة، وطيش ، وحزم ، وحب ، و بغض ، ولهذا أحب الشعر والقصص ، وأنواع الكتابة الأدبية ، ثم أحب أن يصل المعنى الحق إلى نفسى ، لا أن أدفع نفسى إلى فهمه ، ولذلك أحب قراءة الفنانين ، أو البلغاء الذين يقذفون بمعانيهم إلى الافئدة . . .

ولا أذكر أنى أخذت عن أستاذ واحد رأيا قاد فكرى ، ولا أنى قرأت كتابا معيناً ، أو كاتبا خاصا وسرت وراء أسلوبه فى البحث ، أو تقويم الفكر ، أو نظم الكلام ... على أن أستاذاً واحداً صبغنى بصبغته ، وسيرنى بارادته ، ذلك هو فكرى القلق الذى لا يهدأ له روع ، ولا يسكن له جأش ، والذى يثب بى فى ظلمات الحياة ليكشف عن سر من أسرارها ، ولكنه كثيرا ما يعود بالخسران ! غير أنه دائم الوثوب ، لعله يرجع ظافرا ، فهو وحده أستاذى ومعلمى ، ولا أعرف لغيره أثرا فى نفسى ، وهو الذى دفع بى إلى حب الاستطلاع ، وإلى الاستفادة من القراءة أيا كان نوعها ، وعلمنى أن الفكر الانسانى كسلسلة متصل أولها بآخرها ، كلما انتهيت منها رجعت إلى أولها ، وأن الجديد صورة أخرى للقديم ، وأن الأفكار والمعانى كالانسان ، وجدت منذ وجد الكون، تعاد وتتجدد ، ولكن بغير أزيائها، لهذا لا تكاد تجد للبراعة أو الابتكار أثرا فى غير الاساليب والافتنان فى التعبير ، لأن حوادث الانسانية لم تتغير ، فمنذ وجد الانسان وهو يعشق ، ويهجر ، ويسعد ، ويشقى ، ويشكو ، ويشكر . ولكن الذى يتغير هو كيف يعبر عن عشقه ، وكيف يشعر بالشقاء والسعادة ، وكيف يكون خيالا ؟ ؟ لذلك كان للأسلوب البليغ منزلة ، وأى منزلة . . . .

مع هذا : فلبعض الكتب والكتاب منزلة خاصة فى نفسى ... ففى لغتنا العربية أهوى قراءة كتاب « الأغانى » لأنه : «بحر عباب لا يقطعه الخليل بأسباب ولا أوتاد » فى كل ناحية من نواحيه صورة من صور العرب فى البادية والحاضرة ، وفى كل صفحة من صفحاته

(البقية على الصفحة رقم ١٠٤٦)